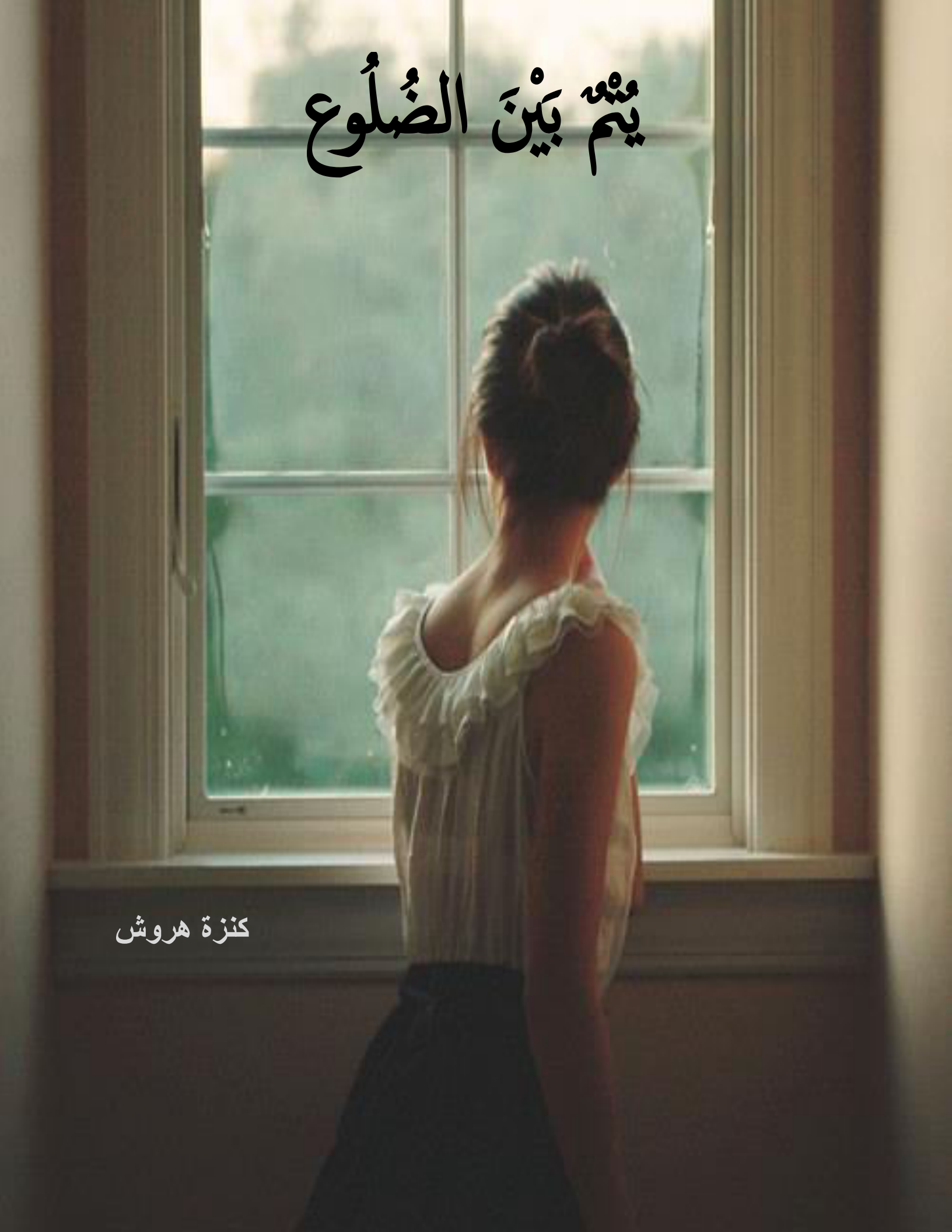

يُتْمٌ بَيْنَ الضُلُوعِ

كنزة هروش

يُتْمٌ بَيْنَ الضُلُوع

قصص قصيرة

للكاتبة : كنزة هروش

إهداء

إلى القلوب المنكسرة

التي رممت نفسها بنفسها

فأصبحت أقوى مما كانت عليه

على الرصيف

ذلك اليوم , عندما أعلنت الدولة عن ارتفاع في الأسعار , و زيادة في ثمن البترول , كل مالنا حاجة به لحفظ ذاتنا والاستمرارية في الحياة قد زيد فيه , وبقينا على حالنا هذا , صحتنا تتراجع وأجورنا تنخفض ومساكننا على وشك الانهيار , والوضع يصير متأزما أكثر كلما سمعنا خبر أخر في التلفاز , حتى أصبحنا نخشى تشغيله , جهاز ملعون ,صندوق يشبه التلفزيون.

كنا في كل مساء نجتمع حول طاولة الخشب الصغيرة , على كؤوس الشاي المنسم بالنعناع , مع كسرات خبز , و صحن زيت الزيتون , ننتظر مسلسل البؤساء , الذي يعكس صورتنا , فكنا نحب أن نرى أنفسنا على تلفزيون الأبيض والأسود ,فلا ألوان تنعش تلك الحياة المهمشة الغارقة بين الفقر والمجاعة , نترقب عودة الأب من عمله , من تكنسيه الأرض من حي لأخر ومن زقاق لأخر ,فكنت حينها أرسم عالم مليء بالألوان يسبح فيه اللون الأزرق , أتخيل أنني أطير بين السحاب , و أسبح بين الأسماك ,و أحلق في الفضاء , لكي أنسى ما كتبه الزمن على وجوهنا , في انتظار أبي الحنون .

ففي كل ليلة يعود يبدو على وجهه التعب , و كالعادة يتصبب عرقا , انتظرت أمي حتى أسكتت جوعه وعطشه , لتعلن له عن خبر ارتفاع الأسعار , وليتها لم تقل فقد زادت الطين بلل , لأنه صباح اليوم تلقى شكوى من صاحب المحل وأي محل هذا نعيش به , خرابة تلفها أغطية من القصدير مثقوبة كالغربال , إن حلت الشتاء أسقتنا من كرمها ,وإن حل الصيف أحرقنا بلهيبه , و مع ذلك فهذا الكوخ يساوى الكثير, فصاحب المحل يريد

هو أيضا الزيادة في السعر, ومن أين؟ فاليد قصيرة والعين بصيرة , انزويت في ركن أحملق في أجواء السهرة , فهما معا لم يستطيعا النوم , بالغد يفكران وبحالنا الميؤس منه ,وماذا سيكون مصيرنا , العديد من الأسئلة تبحث عن جواب , تبحث عن حل في الظلام .

في الصباح الباكر, اتجه أبي نحو عمله كالعادة , وأنا إلى دراستي , لم أستطع متابعة الدرس والمشاركة في جو النقاش ,فعقلي منشغل فقط بحل المسألة المعقدة , ظليت على حالي طوال ساعات الدراسة , إلى أن رن الجرس ,فركضت مسرعة نحو البيت لأفاجئهم بقراري أنني سأترك المدرسة و اشتغل في أي شيء حتى أساعدهم , لكني أتفاجئ بوجود ضيوف عندنا ؟ جيراننا كلهم عندنا , نساء الحي يصبرنا أمي ,لكن على ماذا ولماذا؟ صمت رهيب ملأ المكان عندما دخلت ,الجميع ينتظر من أمي البوح بالخبر, جمعت كل ما لديها من قوة وشجاعة لتخبرني أن أبي قد مات في عمله الشاق ,ارتميت في أحضانها واعترتني رغبة شديدة بالبكاء ,فبعدما كنت البارحة فقيرة ضعيفة صرت اليوم يتيمة , من كان يحكي لي قصص و حكايا ما قبل النوم ,من كان يشتري لي الحلوة و الشكولاطة , اليوم رحل عن شقاء الدنيا وعذابها الذي لا يرحم .

أمي لم تذرف دمعة واحدة , كانت تحترق من الداخل , لاشك أن بداخلها بركان من الحزن والمعاناة و التفكير فيما سيأتي , ليتها بكت أو حتى صرخت , لكانت خففت عنها , لكن حالتها ازدادت سوء يوما بعد يوم , وأصبحت أسيرة الفراش , لا تأكل ولا تتكلم ,إلا أن جاء ملكوت الموت ليقبض روحها المسكينة.

كنت أظن أن الحياة فيها عدالة ,لكنها في كل مرة تثبت لي العكس , فقد حرمت من أبي ثم أمي و الآن أحرم من سعادتي وحقي في أن أعيش حياة كريمة .

فما أنا الآن إلا طفلة من أطفال الشوارع , وما السبب إلا ارتفاع الأسعار , فاللعنة عليكم , إنني أمقتكم وأكرهم يا صانعي الأسعار

بالمقهى أنتظرك

في هذا المساء البارد حد التجمد , تذكرتك مرة أخرى بكل ملامحك ماثلا أمامي , في كامل أناقتك , تعلو وجهك ابتسامة غامضة ,عيناك كقطرتي قهوة في سحابة عابرة تشبهك , كأنك لوحة مرسومة علقت على إحدى جدران غرفتي , أتأملها ذهابا و إيابا , بل أنت أقرب من ذلك , وشم طبع على الذاكرة و من الصعب محوه , مادامت ذاكرتي صعبة المراس , مادامت هذه الروح تتنفس أوكسجينك , فكيف لي أن أنفيك من كياني و أنت الغائب الحاضر رغما .

لا أزال أتذكر لقائنا الأول الذي لم يكن سوى صدفة وقعها القدر و شهد عليها المكان , لتترسخ على الواقع , لم أظن أن خطأ كذلك قادر على جمع قلبين على طاولة واحدة , كلانا حجز في نفس المقهى , لكن النادل كتب اسمينا على نفس الطاولة , و حين وصلت بي الأقدار هناك , وجدته رجلا في الثلاثين من عمره , ذو بذلة سوداء و ربطة عنق حمراء , يقرأ كتابا باهتمام بالغ , و يرتشف قهوته السمراء بهدوء و تأني مبالغ كأنه يراقص الحبيبة رقصة رومانسية الهوى لا تليق إلا بشاعر رهيف الإحساس , أثار انتباه نبضي , و أطلت في وقفتي أتأمله حتى كدت أنسى ما أتى بي إلى هنا , كنت أرغب في الهروب من ضجيج الحياة وعفونتها, من ثرثرة الناس اللامتناهية , عن روتين سئمت من تكرار عزفه الحزين , وفي بحثي عن مكان هادئ منزوي الأنظار , رشحت لي صديقة هذا المقهى الأدبي , الذي

يزين بابه الواسع كلمتين تختزل المعنى من المكان " رفيقي كتابي " حيث لا أحد هنا يتكلم مع الأخر , الكل يرافقه كتاب و قهوة على طاولته و لا شيء

أخر إلا الصمت , أحببت الفكرة كثيرا فنفسي تحتاج لصمت مطول , وهدوء عميق , فحجزت مكان لي هناك حالما علمت بوجود مقهى كهذا , و ها أنا أجدني أمامه , وعليا أن أتصرف بلباقة و ألا أفتعل ضجيجا , سحبت ورقة من دفتري كتبت عليها " المعذرة , الطاولة محجوزة من طرفي . " ثم وضعتها جانب قهوته , انتبه أن جسدا أنثوي يقف أمامه , , و يدا لاحت بشيء , فرمق الورقة بخفة البصر ثم رفع رأسه نحوي ليكتشف من هذا الكائن الذي أفسد خلوته , و كسر تركيزه , إنتظره أن يقول شيء ك " أنا أسف" أو " حسنا , سأغير المكان " لكنه لم ينطق بحرف واحد مكتفيا بسحب الورقة و كتب على ظهرها :

لو تواضع القمر و نزل من السماء

و جلس معنا في هذه الليلة السمراء

لإستحيت نفسي من حرم هذا الضياء

هيئت كانت كافية بقول أنه شاعر دون الحاجة لكتابة شعر , رغم أنه لا توجد قاعدة تقول أن فلان هذا شاعر دون معرفة مسبقة , لكن إحساسي قال كلمته و صمت , و لأني كنت متيمة بالشعر من جهة , ثم فضولي الملح في معرفتك , فقد قبلت و جلست دون تفكير مسبق , نعم إنه الفضول الذي يؤرجحك مابين التهور و التدهور , طلبت قهوة و أخرجت ديوان محمود درويش , وشرعت في إلتهام صفحاته واحدة تلو الأخرى دون مبالاة في ذاك القابع أمامي , فحين يكون درويش تنفى كل الكائنات من عالمي , أعدو وحيدة إلا معه , قصائده ترميني إلى زمن فاتني قطاره ببضع قرون و بقيت

هنا لاجئة في انتظار عودته ليصطحبني إلى موطني الأصل , فتعود الروح إلى المستقر , عادت بي ورقة إلى الواقع مكتوبة عليها :" لم أعرف أن محمود درويش قادر على الإبحار بعيون عسليتين إلى بحار مجهولة

الاكتشاف " رمقته بنظرة حادة كافية لأن يسحب كلامه و يصمت نهائيا , كنت أكره أن أراقب أو أزعج و أنا في حضرة الكتاب , فكتبت له ردا سريعا ثائرا " لم أعرف أن بهذا المكان أيضا توجد طفيليات " حينها تسللت منه ضحكة عفوية متناسيا قانون المقهى الأدبي فصار محط أنظار الكل , لينحنى على كتابه واضعا يده على فمه , لكم ضحكت عليه لحظتها بصوت خافت لا يلغى هدوء المكان , و أنا أخط له على الورقة " كنت أذكى منك" مع رسم أيقونة ضاحكة , و منذ ذاك الموقف و الطاولة امتلئت بكومة من الأوراق ذات الخطين , سؤال يلاقي جواب و أخر استفهام , و كلام لا يقال للقريب انسكب في وجه هذا الغريب , ثرثرة قلم عانقت سطور الورق لتكسر حاجز الصمت المطبق و ترمي بكل القوانين في قاع البئر , هي جلسة واحدة كانت كافية للتعارف , أنا الطالبة "وفاء" في مقتبل العشرين التي لم تنهي مرحلتها الجامعية بعد , و هو "حسام" مهندس معماري و شاعر أيضا , معلومات قليلة عنه لا تشفى غليل الفضول , إلا أني كنت قنوعة لأرضى و أكتفي بها دون غيرها , لم أرد أن أنبش في صفحاته و أتقصى كل ما فاتني من حياته , ليس لأنه جمعتنا بضع ساعات على طاولة واحدة يعني أنه أصبح ملك لي , و سأنهال عليه ببركان من الاسئلة و التحقيق في حياته الشخصية , كنت حدودية وواقعية لأفهم نفسي أن تتشبث بعقلها قبل أن تسقط في رغبات عواطفها , و كان هو متكتم بشكل ملحوظ عن عمق حياته , فغادرت المكان بحجة تأخر الوقت و عليا العودة إلى منزلي , فألح على طلب رقم هاتفي , لكني كنت شديدة الصرامة في رفضي لطلبه , و أقنعته أن نتركها للصدفة كما إلتقينا اليوم , إلا أن اللقاءات التالية غابت عنها

الصدفة , و حلت محلها مجموعة من المواعيد التى تضرب في نهاية الأسبوع بهذا المكان.

كنا الشخصين الوحيدين اللذان على طاولة واحدة , بصمت مطبق و ضجيج ورقي ثائر , نقرأ نفس الكتاب ثم نناقشه معا , رغم اختلاف أفكارنا و أرائنا إلا أننا نتفاهم كثيرا , ونتشابه في أشياء كثيرة , كروحين في جسد واحد , وجوده أصبح ضروري لإستمرار أيامي , فالروح ألفتك , وتلك أصعب الأمور أن تألف شخصا , فلا تستطيع التخلي عنه , كإدمان حي ينبض فيك , وفي أحد الأيام كتب على ورقة بلون أحمر و بخط جميل عريض "أنتي الأقرب إلى قلبي " و في اصطناع البلاهة أجيبه بكلمة " شكرا " مع ابتسامة أنيقة , لكن عندما عدت إلى منزلي في وحدتي , قفز سؤال إلى ذهني صارخا : " هل تحبينه ؟ " كلمتان فقط تكفيان لتزلزل كيانك و تدخلك في مواجهة مع التفكير , لم أدري في أي خانة أدرج مشاعري , حب أم صداقة ؟ أم هي مشاعر حباقة !!!

أخبروني أن الحب بحر عميق , سر مدفون في أرض مجهولة , لغز محير تعيشه و يظل علامة استفهام , قالوا أنه الجنون لا يخاطب العقل و لا يلتفت للمنطق , لا يهتم بنظريات أرسطو و لا أفلاطون , هو شعور خلق على شكل بذرة زرعت في القلوب لتنبت الحياة بها , قالوا الكثير و الكثير , لكن كل هذا لم أحسه في وجوده , لاشك أني وقعت في حب من نوع أخر , ربما أنا أول من أكتشف هذا النوع و لم يسبقني له أحد , حكايتي لا تشبه باقي القصص , كنت السفينة التي أبحرت كل البحار لكنها لم تجد ما يملأ صدرها بالدفء و الأمان , سافرت و اكتشفت وعندما اصطدمت بك , عجزت عن إكمال أخر رحلة لها , و كأن الزمن أوقفها عندك , فلم يستطع لا قبطان و لا ركاب من إزاحتها من مملكة عرشك , فعلموا أن مكانها هناك منذ الأزل .

بعد انعقاد مؤتمرات طويلة المدى , وصراعات دبلوماسية بين قلبي و عقلي , تغلب ذاك المتهور , فقررت بعدها أن أكسر حاجز الصمت , و أكون جريئة في وصف إحساسي لك , و أضع قلبي بين يديك , لكن ليت ذاك الغد لم يأتي في سطور حياتي , و لا ذكرت أنت في ذكرياتي , فقد جاء الغد و لم تحضر أنت , جئت متأنقة جدا على غير عادتي , أرتشف قهوتي في انتظارك , و أراجع بوحي التي سيصرح به بضع دقائق قادمة, لكن الدقائق صارت ساعة , و الكوب صار ثلاثة أكوب قهوة مرة إلا خمس ساعات من الانتظار , انطفئت شمعتي , غابت بهجتي , و احترقت أوراق اعترافاتي , ليتكرر المشهد الأسبوع بأكمله , كأنني في حلم بشع أصحو و أنام عليه , و في اليوم السابع ينتهي كل شيء , أفيق على واقع مر ,جاءني فيه النادل على هيئة مرسول من طرفك , ظرف كتب عليه اسمي وحيدا مصلوبا , يبشرك أن المحتوى لا يسر صاحبه , ففتحت الرسالة أنبش قبرها بحثا عن غيابك اللعين , فجاءتني حروفك قاسية قسوة قلبك المتحجر , عجزت حتى عن كتابة رسالة تليق بوداعك , سطرين كرصاصتين أطلقت في صدري , و أردتني قتيلة :

" أعتذر عن كل شيء أمضيناه معا , لكني رجل متزوج و أب لطفلة ,عندما ستفتحين رسالتي , سأكون خارج أرض الوطن رفقتهم ,أتمنى لك حظا طيبا مع غيري . "

لملمت شتات ما تبقى مني , و عدت من حيث كان لي أن أبقى , أدركت السفينة أن مكانها ليس هناك , و أنها قابلة للغرق في أي لحظة , فهي لم تعش سوى سحابة عابرة أغرمت بها بلا حسبان , فحين مينائها كان و لا يزال باق حيث ولدت و تربت منذ نعومة أظافرها , و لا ميناء بعده سيأتي .

كنت أريد مكانا بعيدا عن الأنظار , هادئ بلا ضجيج , الآن أريد أن أحيا على

كوكب أخر لا يكون فيه أشباه الرجال , غدا سأحجز مكانا إلى كوكب الزهرة يبدو أنثويا , و بالتأكيد هناك سأجد راحتي الأبدية و أتنفس بحرية , فمتى سيأتي ذالك الغذ ؟

قصف البراءة

تسللت في عتمة الليل و بيدها حزمة ملابس تدفيها في طريقها إلى المجهول الذي ينتظرها , و بعض الطعام يسكت جوعها ,انتظرت حتى أوى أخر فرد في المنزل إلى الفراش , لتودع أمها من بعيد , لم تقوى على الإقتراب أكثر , فكل خطوة تقربها من غرفة والديها كان بالنسبة لها جرم لن تغفره لنفسها , لم تكن خائفة من أن يستيقظ والدها و يكتشف مخططها للهرب بقدر ما ترعبها فكرة أن تدنس جسد أمها , أن تلامس يديها وجه الأم المقدس , وأن تبوس قدميها فتكون سببا في دخولها الجنة يوما ما , أن تلتقي بها هناك في مكان لا يصلح للبكاء و لا للفراق , أن تضمها على صدرها و تهديها ربيع أغنيات طفولية فتغفو لأول مرة و هي مطمأنة أنها لن تكون وحيدة بعد الآن , و لن يخذلها أحد بعد الذي كان , و ستستيقظ من حلم جميل لتجد نفسها في جنة لا تشبه كل أحلامها , مكان حيث تكون فيه الأحلام قابلة للولادة في جزء من الثانية , فقط تمنى ما شئت و اطلب , مشهد خيالي رسمته " إسراء " و الدموع تنغرز في خذيها , من عيون سكن فيهما الألم و فارقت فيهما الأمل , و في لحظة فراق بين الابنة و الأم من بعيد في ظلام دامس سؤال واحد يطغى على تفكيرها و يقرع كجرس لا يتوقف نبضه : أتراها تغفر لي ؟

لم تستطع " إسراء" زهرة القرية , المحبة من طرف الجميع من صغير إلى كبير مفارقة أهلها و البيت الذي شهد أول صرختها إلى الحياة , لتدخل الفرحة إلى قلوب أفراد الأسرة , بعد أربعة إخوة لها جاءت هي الخامسة

ليكتمل عد الأصابع , و تصبح المدللة الصغيرة المحتلة الصدارة في كل شيء تريده , والتي تحقق مطالبها قبل غيرها , كانت الصبية الوحيدة في العائلة حيث كل المتزوجين في العائلة لم ينجبن إلا الذكور , فجاءت هي لتكسر القاعدة و تكون الجوهرة التي تتطلع لها كل الأيادي , و تتشوق لها كل العيون , كل النسوة تريد أن تكون زوجة لأبنها في المستقبل , فكن يتسابقن في طلب يدها من والدها و كأنها البنت الوحيدة في القرية و ليست في العائلة , و لكن رغم التقاليد و العادات الطاغية على الأجواء و في كل شؤون حياة أناس القرية كان لآخوها الأكبر يد في تغيير بعض من مسار حياتها , بحيث كان متعلما ذو ثقافة عالية و وعي رصين و خلق رفيع , واجه الجميع حتى أباه و فرض عليهم أن أخته لن تغتصب طفولتها و تتزوج في السن التي تلعب فيه أخريات في الجهة الأخرى من هذا العالم , قطع وعدا على نفسه أن يوجهها لمسالك العلم درجة درجة حتى تنهي كل المستويات لو كلفه أن يرسلها إلى المدينة حتى تحصل على الشهادة الثانوية , أرادها أن تكون طالبة علم لا خادمة بيت عند زوجها الذي يكبرها بربع قرن و أهله , أرادها أن تحصل على وظيفة محترمة تكافئ كل سنوات الكفاح الدراسي و أن تكون فتاة مستقلة بذاتها , واعية بكل خطوة تضعها نحو الهدف , لتكون في النهاية إن أرادت لا فرضا زوجة صالحة لرجل طيب , و أما مثقفة و حنونة تسير على منهاج الدين و الأخلاق في تربية أطفالها ليكونوا مثال يحتدا به في التربية الحسنة , لا أما تجهل الألف من الياء , قاموسها لا يحتوى إلا على مفردات الطبخ و الكنس , و يكون دورها محصورا فقط في النكاح و الإنجاب , هو مشهد اكتفى أخوها " أحمد" من رؤيته كل يوم , طفلة تسمى أما تجتر طفلين كل واحد في يد و أخر في ظهرها بينما الرابع لا يزال يترعرع في أحشائها و هي لم تبلغ من العمر الثامنة عشر على الأقل , متى أنجبت كل هؤلاء ؟ و متى تزوجت ؟ الله أعلم

!!! , لذالك لم يكن لأحمد أية أهداف أو أحلام سوى واحد , مشروعه الأول و الأخير هو " إسراء"

أكملت " إسراء" كلا المرحلتين الابتدائية و الإعدادية بتفوق ساحق في كل سنة بمعدلات لا تتجاوز المرتبة الأولى , كانت فريدة منذ أن رأت النور كونها أول أنثى في الأسرة , ثم جمالها الذي لم يكن يشبه غيره من جمال بالقرية بأكملها , على هيئة فتاة غجرية خلقت و فتنت فتواضعت , لكن الجمال وحده لم يكفيها بل أصرت أن تتابع مسار تميزها في الدراسة أيضا , أن تكون قدوة لبنات قريتها و تساعدهم كما علمها " أحمد" فرغم سنها الذي لا يتجاوز الخامسة عشرا إلا أن عقلها كان أكبر من جسدها , و من حسن حظها هي و من في سنها , أنها لن تكلف نفسها العناء و المشقة لإكمال دراستها الثانوية في المدينة , و البحث عن المأوى هناك , فقد تم بناء ثانوية على مدخل القرية و سيأتي بأستاذ ليدرس الطلبة , بعد عدة سنوات من بعث ملف الطلب إلى وزارة التعليم , فكانت الفرحة لا تسع الكل بكلا الخبرين فلا الأهل يهون عليهم البعد و لا فلذة أكبادهم , و سرعان ما انتهت العطلة الصيفية في جو من الفرح و الهناء بأن القادم ما سيكون إلا مستقبل زاهر لهذا الجيل الصاعد .

ابتدأت الدراسة في جو حماسي لتلقن العلم و التعرف على الأستاذ الجديد القادم من العاصمة , كان وسيما لكن ليس بقدر رجال القرية أصحاب الوسامة و الشهامة , و الرجولة و العزة , فالقرية هي بيت عائلي يضم الكل في قبضة واحدة , فإن تضرر عضو منهم اتحدوا في صف واحد لأجله , ليس كساكنة المدينة , كل واحد يغلق بابه على نفسه هائم في بحره دون إكثرات بجاره ,

كان على الأستاذ أن يتأقلم مع طبيعة القرية و يتعرف أكثر على تقاليد

أناسها كي يكسب محبتهم فيتقربوا منه , لكنه كان يضع دائما خطا فاصلا بينهم , يعاملهم في حدود اللباقة و الأدب و لا يسهب في الكلام , للحد الذي

أصبح يقال فيه الأستاذ الغامض , و هنا أعجبت " إسراء" بهذا الغموض الذي لفه حوله , لكنه لم يكن يلعب سوى دورا ألفه بإتقان و مثله على مسرح القرية و " إسراء" خاصة , فقد لحظ من أول حصة له أنها الأجمل و الأذكى , و ميزتان اجتمعت في جسد أنثوي واحد لا يمكن أن يمر مرور الكرام عليه , نسج خيوط فخه بإتقان تاركا للفريسة أن تأتي على مهل , كان واثقا أن عواطف الأنثى دائما ما تخون المنطق , لا سيما في سن المراهقة حيث تتخبط المشاعر ميلا عشواء , في إعترفات شيطانية أوهمها أنها أسرت قلبه و أنه لا ينبض إلا لها , و أنه ضائع من دونها , و الحياة ظلام من دون نورها , غياب من دون حضورها , قال لها أنه سيتقدم إلى خطبتها في أقرب أجل ممكن لتكون شريكة حياته و أم أطفاله , فوثقت بوعوده السامة التي سممت عقلها قبل قلبها , لينطفى ذاك الذكاء و يحل محله الغباء العاطفي , أحست بغمرة من الحرية و هي معه و كأنها تحررت من كل تلك القيود التي وضعتها العادات و التقاليد , رغم أنها بفضل " أحمد" لم تكن محاصرة بها , لكن حينما يدق قلب الأنثى لرجل تنسى أن تحتفظ بعقلها في المقدمة و تضعه في قاعة الانتظار إلى أن يقع الفأس في الرأس فينشق إلى نصفين , نصف فقد الإحساس و الأخر في الإنعاش , و المسكينة أخطأت في الوثوق بكلماته الكاذبة المكسوة بالشاعرية , وعيونه التي لم تكن تلمع غموض بل خيانة, كعيون ذئب ينقض على فريسته في ظلام حالك , فقد اعتدى عليها في قاعة الدراسة , كيف للمكان الذي تولد فيه الكلمات و الأفكار أن تموت فيه عذريتها غصبا , أن تسقط الأحلام من جسدها الهزيل واحدا تلو الأخر , و تتبخر الأمنيات في لمحة البصر, و يشهد الفصل الدراسي سقوط شهيدة تفيض دما , ليغيب هو إلى الأبد تاركا

وراءه مأساة حقيقية, حزم أمتعته و فر هاربا كالفأر إلى مكان ما , قضى على " إسراء" التي لم تتجاوز سن السادسة عشرا, الذي كان هدفها الوحيد هو طلب العلم و تصبح ذو شأن في المستقبل كما وعدت " أحمد" إلا أن مشروع أحمد قد باء بالفشل قبل بلوغه القمة , فقد نسي أن يعلمها الدرس الأهم أن لا مكان للحب في قلب طفلة مراهقة هشة البنية , ظنا منه أنها لن تحتاجه في هذه القرية الصغيرة التي أفرادها يعدون على الأصابع , لكنها يا " أحمد" احتاجته لتعرف حقيقة الوغد الذي أسكنها بين قصص الحب و متاهات الغرام ثم حطم أحلامها و رحل في اتجاه ضحية أخرى في قرية أخرى , و عدد الضحايا يزداد و المجرم يتابع سلسلة جرائمه متنقلا من هنا إلى هناك.

كان على " إسراء" مغادرة القرية رغما عنها بعد اكتشافها بأسابيع قليلة من هروب المغتصب أنها حامل , فإن ظلت ستجلب العار للعائلة و تدنس شرفها في الوحل , وحتما لن تبقى على قيد الحياة هي ومن في أحشائها , و لن تموت أبد بسلام , وبما أن الحياة لم تترك لها خيار أخر تستنجد به فكان الحل الوحيد هو الهرب , اختارت الهرب لتحي غير أن الحياة تبرأت منها يوم هروبها , صدمتها شاحنة نقل للبضائع لتسقط في أرض المعركة قبل أن تحط قدما واحدة خارج القرية , تم نقلها إلى أقرب مستشفى تلتقط أخر أنفاسها ما بين الحياة و الموت تنتظر مصيرها , في حين تلقت الأسرة الخبر في منتصف الليل فهرع الجميع إليها , لكن لم يجدو إلا الجثة فالروح صعدت إلى خالقها , مخلفة وراءها صدمة الموت و الحمل , و ما إن سمعوا أنها كانت حامل حتى أخذ الأب الثائر الجثة على ظهره كعار أبى أن يتخلص منه و يسكت كل من حوله باسم التقاليد و العادات التي تطبق رغم أنف الجميع بما فيهم " أحمد " الذي لم ينطق ببنت شفة انسحب من بين الموكب

الذي يتقدمه الأب الحامل للجثة , جارا وراءه رجال القرية في اتجاه أعلى شلال , وهناك ألقى الأب ب " إسراء" من فوق إلى باطن الصخور دون

شفقة أو رحمة , و في الجهة المقابلة للشلال سقط " أحمد" أيضا من أعلى جبل وهو يردد " روحين معا في الأرض و السماء معا " , و تظاهر أهل القرية بنسيانهم أنه كانت هناك فتاة تدعى " إسراء" منتظرين على أمل أن يعود "أحمد".

كان قدري

في طريق العودة من المستشفى , توقف محرك سيارتي عن العمل , مما جعلني في موقف لا يحسد عليه , مرتبكة , متوترة , و حائرة , يداي ترتعشان على المقود , و كأنني سأجتاز امتحان أخر السنة , إنها المرة الأولى أقع في هذا المأزق منذ حصولي على رخصة القيادة , أعصابي متوترة , و جسمي يتصبب عرقا , من رأسي إلى أخمص قدمي كإسفنجة في بركة ماء قابلة في أي لحظة للغرق , لم أعرف كيف أتصرف فليست لي أدنى فكرة عن مجال الميكانيك , بالكاد تعلمت السياقة بعد أن رسبت مرتين متتاليين في التطبيقي , فلو لا ذاك اليوم الذي مسكني فيه "علي" من يدي و أخذني رفقته بالسيارة إلى ساحة فسيحة واسعة , بعيدا عن الطرقات المزدحمة و الضوضاء , ليعلمني هو بنفسه خطوة خطوة , لما حصلت على الرخصة فيما بعد , ما أجمل أن تتعلم على يد من تحب , أن يهبك من عمره ما يسعدك من لحظات لا تنسى , أن يمسك يدك بلمسة حنان و يضعها على المقود , ناظرا إلى عينيك مبتسما , و على و جنتيه غمازتين تزيده إغراء و افتتان , و في حرم هذا الجمال كله , يضغط على يداكِ مخاطبا بصوت شجي عذب : "لا تخافي أنا معك" فترتبكين و تميلي برأسك إلى الأسفل خجلا , وأنتِ من الداخل يكاد يغمى عليك من فرط هذا الرقي و الرفق في التعامل , تناقض في مشاعري يلوح بي بين الراحة و الفقد , إني أفتقده حد الإختناء

, أموت شوقا له , لماذا تركتني و رحلت وحدك ؟ أما كان لك أن تأخذني معك في رحلتك الأبدية هذه ؟ أن تمسك بيدي , و تطوقني بذراعيك لنتلاشى معا في اللامنتهى , لكنك مازالت حيا بداخلي كما كنت , أشعر بأنفاسك تخترق أضلعي , و روحك تجلس بجواري في كل مكان , عيناك المشرقتان تحدقان بي , و كعادتك تخجلني و تقفز بقلبي طربا كلما أطلت النظر إلي , يروق لك احمرار وجنتاي و تعثري في الكلام , و توتري أمامك , فتضحك من أعماق قلبك و أصمت بينما قلبي يرقص فرحا لإسعادك , اه إنها الذكريات تفعل بنا ما لا يفعله العدو , تحفر من الداخل لنصبح أجسادا هشة لا تصلح سوى لكفن أبيض يلفها و قبر يسع أحزانها و همومها , إبق بقربي يا علي , إمنحني بعضا من قوتك لأتخطى الأمر .

أخذت نفسا عميقا و أدرت محرك السيارة مرات متتالية دون توقف أو استسلام , عسى أن يحالفني الحظ , و يشفق علي , فما كان من نصيبي إلا بعض اهتزازات و بصعوبة بالغة استطعت ركنها جانب إحدى الأرصفة , وأجول ببصري على ما أنا مقبلة عليه , و الآن ماهي الخطوة التالية ؟ هل تعرف هذا الشارع يا علي؟ هل مست قدامك هذه الأرض يوما ؟ أم أنك أيضا تحس بالغربة مثلي هنا ؟ المكان خال و نادرا ما مرى أحد مما جعلني في هستيريا من الهلع والرعب , فؤادي يود لو ينشق عن الصدر و يقفز إلى راحتي حتى ينام فيها و يطمئن نبضه و يستكين .

الساعة تشرف على السابعة مساء , أوشكت السماء أن تسدل ستارها بغروب شمسها , و تبلد غيومها , فالليل قادم لا محال , و القمر و النجوم يضربان موعدا للقاء , و أنا لا زالت عالقة في مكاني , أسابق الزمن لأضع في حقيبتي أغراضي المبعثرة في كل ركن من السيارة , من ملفات و أوراق

فحوصات طبية تحتاج إلى مراجعة و أخرى إلى كتابة تقارير عليها , فمتى أقوم بكل هذا و أنا لا أعرف حتى أين أنا على الخريطة , كدت أنسى حاسوبي الذي تتربع فوقه علبة البيتزا في المقعد الأمامي الذي كان من قبل ل "علي" و الآن صار يخص كل ما شابه من الأكل السريع , و وسائل الاتصال من هاتف أو حاسوب , إن من يرى سيارتي من قلب الحدث , لن يظن أبدا أنها لإمراءة , أقفلت سلة المهملات تلك و سرت أحمل على كتفي حقيبتي , أسير بعجل , و بين الخطوة و الأخرى خطوتين , فالمكان الساكن يثير الشك فيما قد يخبئه لك على غير استعداد من أمرك , كما أني أخاف أن أبقى لوحدي في وحشة الظلام و الفراغ , و لأن "علي" كان يعرف أنه منبع الأمان لي لم يكن يتركني بمفردي لحظة واحدة , لم يجعلني يوما أحس بمعنى الخوف , كان ملاكي و عشقي الأبدي , أنسى الدنيا ولا أنساه , كيف أنسى أبي و أخي و زوجي و حتى ابني , فإن اجتمعت فيك كل هذه الصفات قل لي كيف أنساك , أنسى من علمني فن العيش بكل ألوان قوس قزح , أنسى من أهداني مشاعر صادقة و عمرا جديدا لا يليق إلا بوجودك قربي , أنسى من امن بحلمي أن أصبح طبيبة يوما , لا و ألف لا , فقلبي مثواك , ونبضي هواك , و قلبي بالدعاء يرعاك , الحديث عنك ينسيني نفسي و ما أنا فيه حتى يعود بي صوت أسمعه إلى الحياة من خلفي , حركات خفيفة ثقيلة على الصدر , تارة ارتطام و تارة خطوة , و أستدير فلا أجد أحد , و كأنني في لعبة الشرطي و اللص , و هذا ليس بوقت لعب أو ما يدور في رأس الغريب , صرت أضاعف خطواتي أكثر فأسرع , و أحاول الاعتدال في مشيتي , منتصبة القامة , مرفوعة الرأس , ثابتة الخطى , كي أظهر له أنني قوية لا أهابه , و في باطني الافتراضات و الظنون تتلاعب براسي يمينا يسارا , كمضخة تعبت و أوشكت عن الانفجار , أنا أفكر في طريقة للتخلص

منه و هو لازال يعبث معي في هذا الشارع الطويل الذي لا يكاد ينتهي حتى يهلكني , فلو لا العمارات المحيطة بي من كلا الجانبين , لقلت أنني على الطريق السيار , حيث لا بشر و لا بنايات , لا تكتشف صعوبة الطريق إلا و أنت تمشي عليه برجليك و تجربه بنفسك , كأن لا تحس بالمريض إلا و قد مررت بنفس مرضه , أو إلا وكنت أنت هو حقا وذاك مستحيل , لذالك محاولتك الشعور بألم غيرك أشبه بالدوران في حلقة مفرغة , و بحكم عملي كطبيبة أرى في يومي ما لا يراه غيري من شتى أنواع المرضى , يحزنك مرضهم و تسعى جاهدا في رسم البسمة على شفاههم , بصبر يريح صدوهم المثقلة , لكن لا يمكنك أن تتعمق في جرحهم و الإحساس به , ذاك أشبه بالإنتقال من النظري إلى التطبيقي , لكننا نبقى فقط في المرحلة الأولى و لا نتعداها .

أوشكت أن أتخلص من هذا الشارع البئيس كي أقبل على أخر , لكن قبل بلوغ نهايته , قررت أن أواجه مخاوفي يا " علي " , فقد حان الوقت لأعتمد على نفسي من بعدك , وعلى إيماني و طاقتي التي أملك في صميمي , سأتشجع باسم " الله " و أرى من يلاحقني و لا يذهب إلى سبيله , سأعد حتى الرقم ثلاثة و أستدير على غفلة منه و أواجهه وجها لوجه , واحد , اثنان , ثلاثة , ثم !! المفاجأة !! كانت مجرد قطة صغيرة , كادت أن تؤدي بي إلى السكتة القلبية و تخرس ما ظل لي من أنفس ضئيلة , و يا ليتها قد فعلت , و عوض أن أعاتبها على ما تسببت لي به من كل هذا الكم من الخوف , جلست أرضا أقهقه و هي تنظر إلي , لم تفهم شيء مما يجرى حولها , لا بد أنها تقول في نفسها أنني غريبة الأطوار أو مجنونة , من حسن حظها أنها ثالث شيء أحبه بعد علي و طفلي , تذكرت أنه بحوزتي

قطعة من الجبن في حقيبتي قدمتها لها , و أنا أراها تلتهمها بلهفة من شدة جوعها و فراغ بطنها , يبدو أنه لا أحد أطعمها في رحلة البحث عن طعامها اليوم , بالطبع فلو إهتموا بالفقراء أولا لتمكنوا من الرفق بالحيوان الذي هو أخر همهم , تركتها لمصيرها و توجهت نحو مصيري , فلا أريد التعلق بك يا عزيزتي , أخشى أن أفقدك كجميع أحبتي , أن يرحل أحدنا فيضيع الأخر في السراب , دعينا نتوقف هنا , و لنجعل أول لقائنا هذا فراقا لنا , و لا تقولي شي, تابعت سيري نحو الشارع الرئيسي دون أن ألتفت إليها و أرى عتابها , و لكنها قطة متمردة على المنطق الذي قد رسمته لها , تبعثني على حذر و هي تقترب أكثر من ذاك الظل المائل على الجدران , حتى لمست قدمها طرف ثوبي بهدوء ,فاستدرت نحوها , ثبتت ناظريها نحوي وتسمرت على ذاك النحو , رق قلبي لذاك الشعاع المنبعث من بؤبؤ عيناها الصغيرتان , فيهما حديث مفاده كلمة واحدة " لا تتخلي عني " أوقعتني في فخها دون أن تموء بشيء , لتجعلني أتخذ قرارا لم أشأ الإقدام عليه منذ البداية , حملتها بين ذراعي لأنسى بعدها العالم , لم أعد منتبهة أين أخطو و لا من يمر أمامي , فقطتي سلبت مني العقل , أتأملها وهي نائمة في طمأنينة وراحة بال , فقد وجدت مأواها , وكلانا و جد من يؤنسه في وحدته الهالكة.

شعور اختلج صدري دفعني إلى التفكير في الماضي و أوجاعه قبل أفراحه الضئيلة , لكني لن أدع الشريط يعاد مرة أخرى , يكفيني أنه يزورني في كل حلم , و بين كل شهقة و تنفس لي معه ذكرى حاضرة لا تموت , سرقتها بغتة من الزمن , نظرة , فضحكة , فسلام , ثم وداع و عبرات لا تنتهي صلاحيتها و لا تجف , دعيه ينام الآن أيتها الذاكرة العنيدة , فلي معه موعد

بعد النوم , و فيما أنا شاردة مع نفسي , أجدني فجأة في شارع لا أعرفه , كيف قادتني رجلاي إلى هنا , لا أدري , لأول مرة أرى هذا المكان المهجور

, منازله قليلة , بعضها مخرب و الأخر مهمل لا يسكنه أحد , و ما تبقى من المنازل يقطنها بعض من البشر , هذا المساء غريب بتفاصيله و أحداثه , فأي شيء أخر مازال ينتظرني بعد الذي كان ,و أي منعطف يخرجني من هنا إلى منزلي في سلام , و كأنني في مدينة لا أعرفها , أو أن تلك السيارة كانت تضع غشاوة على عيني حتى لا أبصر إلا ناطحات السحاب و الشوارع الرئيسية و المحلات التجارية الفخمة , و كل ما هو عال ضخم , إنني لم أعد أدقق فيما حولي , مرى وقت طويل على ذلك وتغير مني الكثير , ولو لا علو تلك المباني التي ترغمك أن تراها لما لمحتها هي أيضا , لم أعد أرى حتى نفسي فكيف بي أبصر من حولي من بشر و أشياء , أركز على نقطة واحدة هو عملي لا شيء أخر , حيث أعيش لأعمل و ليس العكس , تحولت حياتي في في رمشة عين من معنى للوجود إلى إنعدامه .

لازلت عالقة في هذا المكان المخيف بسكونه و صفير رياحه و قساوة برده و ماهي إلا ثواني حتى أمطرت السماء غيثا و اكتملت اللوحة , و هنا تذكرت قول أمي " يا بنيتي , إن المطر رحمة من عند الله فطهري روحك بها " و مددت يدايا إلى السماء أدعو الله قائلة " اللهم إرحمني يارب " ثم وضعت القطة في الحقيبة وواصلت السير بروية , و كأن قطرات المطر أنزلت على قلبي السكينة و أحيت بعض ما مات فيه , إلا أن المطر صار غزيرا و الرياح تجذبك من كل الاتجاهات , ومع قساوة الجو و التغيرات المناخية خيل إلى مسامعي صوت طفل, شديد الصراخ , حاد البكاء , كجرس يقرع في صميم أذناي , وكلما دنوت يزيد إرتفاع الصوت ليتبين أنه لم يكن تخيلا بل واقعا ملموس يصعب تصديقه , ففي أحد زوايا بيت مهدم , وجدت طفل ملابسه مبللة , يرتعش بردا , أسنانه العلوية تحتكان بالسفلى , يدان جامدتان , و الخدود تورمت , و عيون أتعبها البكاء , وكل هذا دون مبالاة من أحد , تملكني شعور الأم في خوفها على ابنها , هرعت إليه بمعطفي , و

خبأته في حضني ,و أنا أربت عليه حتى سكن و شعرت أنه تدفأ قليلا , فطمئن قلبي معه , تذكرت علبة البيتزا و أخرجتها من الحقيبة بهدوء بعدما وجدت القطة غارقة في النوم في مسكنها الجديد , و وجلست أطعمه بيدي كما كنت أفعل مع عمر , غريزة الأم لا تموت أبدا , توجد في أي أنثى و تمنح لأي طفل , كم كان هادئ صامتا , لم ينطق ببنت شفة ولا أنا كذلك , و كأننا نعرف بعضنا منذ زمن و لا نحتاج لأن نُعَرِفَ عن أنفسنا , إحساس عميق يشدني نحوه , شعور غريب يختلج صدري قوي لكنه لا يفسر من أين مصدره , لكن الفضول استحوذ عليا , أريد أن أعرف كل شيء عنه منذ الولادة إلى الأن , من الألف إلى الياء , فقطعت صمتنا الجميل بسؤال :

_ ما إسمك يا بني ؟

+ عثمان

_ كم عمرك ؟

+ ستة سنوات

_ و أين والديك يا عثمان ؟

+ توفي أبي و أمي في حادث سير و رميت أنا إلى الشارع

وهنا توقفت عن طرح الأسئلة و انتهى دور المحقق , لأنعزل في صمتي , و أدقق معلوماتي ,ف مع كل جواب له يصفعني ذهولا ويوقظ نيران حرائقي التى لم تخمد بعد , فقبل سنة من الأن , وقعت حادثة سير كنت أنا وزوجي رفقة ابننا عمر ذو الستة سنوات في قمة الفرح لأننا سنقضي الإجازة

الصيفية في إحدى المدن السياحية المطلة على البحر , لكن القدر اختار لنا مسارا أخر غير الذي رسمناه , ففي الجهة المقابلة كانت هناك سيارة قادمة نحونا بسرعة تفوق الحد , و حاول " علي " تجنبه قدر الإمكان إلا أن السائق الأخر قد فقد السيطرة على سيارته , و فقدت أنا روحين بدونهما أنا لست أنا , فعرفت فيما بعد أن صاحبها كان ثملا , و رغم أنه قد دفع ثمن جريمته بالحكم عليه بالسجن لسبع سنوات إلا أنها غير كافية بالنسبة لي ,فقد كنا ثلاثة أفراد و أصبحنا واحد , كلاهما مات لأنجو بعد شهور قاسية و ليال قضيتها في المستشفى بين الحياة و الموت , بين الأسلاك و الأقراص , لم أتخطى الأمر , كانت تصيبني نوبات حادة و أزمات نفسية أكثر من مرة في اليوم , والبكاء ليلا نهار ,لا شيء كان يستحق الحياة بعد فقدانهم , فما قيمة الحياة بدون عائلة؟ , لا تساوى شيء , ففي ذلك اليوم توفيت أنا أيضا , دفنت معهم , غير أنهم ماتوا روحا و جسدا ,و أنا الجسد باق والروح رافقتهم , أنا الأرملة الفاقدة لكبدها , و عثمان اليتيم الأب و الأم , أنا لا يمكنني أن أسترجع زوجي حبيبي , لكن بإمكان استرجاع طفلي , و عثمان لا يمكن أن يسترجع أباه , لكنه على الأقل سيحظى بأم تعوضه عما فات و بقطة أيضا .

إنه قدرنا جميعا , أن يدب الله الحياة في عروقنا من جديد , فكل ما طرأ علينا هذا المساء إنما من تدبر الخالق و ما هو إلا أجمل تدبير من رب الكون , ما أخذ إلا ليعطي , وفي خضم فهمي لهذه الحكمة الربانية , فاجأني عثمان بسؤال :

_ هل تكونين أمي ؟

ابتسمت وقلبي يرقص فرحا لم يعهده منذ زمن , احتضنته بقوة , وهنا خرجت القطة من الحقيبة تجري نحونا تبحث عن مكان لها بيننا , فضحكنا

عليها , و أنا أجيبه عن سؤاله : " حان الوقت النوم , لنعد إلى منزلنا يا صغيري " .

يتم بين الضلوع

أنهض من موتِ المتكرر كل صباح على ضفتين متناقضتين , قد حشرتا في عالم واحد , ضمن بيئة واحدة لا مفر من واقعها المعاش , الأولى تحملني إلى ذاك العصفور الحزين هناك , ذاك الأسير في قفصه الصدء عند الجيران , و ربما هو من يوقظني نحو خيبتي , لكن هل يوقظني بنشيده أم نحيبه ؟ أكان يغرد ام يستنجد ؟ وبمن يستنجد بي أنا ؟ كيف لسجين أن يطلق سراح سجين أخر , كلانا يا صديقي في ميزان ذو كفة متساوية , غير أنك هناك و أنا هنا , تحزنني رؤيته أكثر مما تبهجني فأشيح بوجهي عنه , وألتفت للضفة التي تسكنني , لأجد الصوت الخشن مازال ينبح و يهز جدران الغرفة المجاورة , صراخه المأساوي حفظته ظهرا عن قلب في حين مخاطبته لا تملك ثلث ضخامة صوته , أقف على ناصية باب الغرفة أسترق السمع و النظر ,أثبت جسدي النحيف على الجدار و أراقب ما سيؤول عليه هذا النقاش الحاد , تمسك أمي بطرف من قميصه و تقول له و هي تبكي : " لا تفعلها ... لا تفعلها " عن أي شيء تطالبه بعدم فعله ؟ لا أدري , كل الذي أعرفه أن تلك القوة التي منحها الله عزوجل له لا يستخدمها إلا عليها , فقد دفعها بقوة على الأرض فارتطم رأسها بالحائط فتسمرت على تلك الوضعية دون شبه حركة , أسرعت إلى غرفتي قبل أن يخرج و يراني فيكون مصيري لا يختلف عنها , عدت إلى فراشي أحضن أختي الصغيرة , ملاكي غارقة في النوم تجهل ما يدور حولها من أحداث .

و أخيرا بعد أن خرج بإمكاني أن أتنفس الهواء بطلاقة كما يفعل بقية العالم , فعدت أتمم مراقبتي للمشهد غير أن هذه المرة لا مخاطب و لا خاطب , إنه

عرض منفرد , مازلت في موضعها على جبينها جرح ينزف دم , انزوت في ذاك الركن تبكي و تبكي و لا شيء تفعله في حياتها غير فعل البكاء و مزاولة أشغال البيت , ثم محاولة إرضاء زوجها الذي مهما قدمت له فلا شيء يعجبه منها , لتعود مجددا في دوامة الشجار الثنائي و النحيب الفردي , أما مسألة تربيتي أنا ذات الست سنوات و أختى التي لم تتجاوز الثلاث سنوات فلا محل لنا من الإعراب عندها , لذلك لم أقترب منها فلا تجمعني بها أية علاقة , لا عطف و لا حنان لا شيء , الحب وحده أستمده من أختي الصغيرة , يقولون أن الأخت الكبيرة بمثابة الأم الثانية إلا أنني كنت الأم الأولى لها , مركز أستحقه عن جدارة , يدانا لا تفترقان عن بعض فأينما كنت تكون هي , و معظم الوقت نتسكع في الأزقة رفقة أطفال الشوارع , طائران يحلقان في السماء , يجوبان الفضاء , كل الأحلام تليق بنا هناك , لكن هذا لا يدوم فعلى العصفوران العودة إلى القفص .

بحلول المساء عدنا إلى سجننا الأبدي , لأجد أمي تارة تمشي يمينا يسارا , و تارة تنظر من النافذة , حتما تنتظر عودة الزوج , تنتظر خيبتها و نكستها , لابد أنها قد اشتاقت للضرب , كما يقول المثال (ضرب الحبيب كأكل الزبيب) فرغم كل ما يفعله فيها تتجاوزه و كأن شيئا لم يكن , تستلذ بتعذيب نفسها فهي مازوشية بكل تأكيد , و هو السادي الذي يستمتع في تعذيبها , فكيف لا أكون الضحية المعذبة بينهم ؟ لم تلتفت لحضورنا و كذلك أنا لم أفعل كل منا حفظ دوره و ما يجب عليه فعله , تركتها في ترقب و حملت أختي لأضعها في الفراش , نامت و لم تغمض لي عين بعد .

منتصف الليل , لازلت تنتظر عودة الزوج العزيز , طال انتظارها دون نفاذ صبرها , لابد أن هناك سرا ما و قريبا سأكتشفه , و هاهو الباب يفتح

و أبي يدخل لكن ليس وحده , بل رفقته شابة في مقتبل العشرين و لو بقيت أختي الكبرى على قيد الحياة لكانت في سنها تماما , و في هيئتها أيضا , جميلة , رشيقة , ذات شعر بني طويل , و عينان صغيرتان لوزيتان , قطعت عليَ أمي لحظة تأملي للفتاة بصراخها : " فعلتها ... فعلتها !!! " و هنا حللت شفرة سؤالي السابق , فالفعل نسب للشابة التي أمست في محل زوجة أبي الثانية على المدعوة أمي , مسكها من ذراعها وسحبها بقوة إلى غرفة النوم , لكن هذا لم يمنع أن أسمع ما يقال هناك و الكل أيضا , كانت تنحب و تشهق و بصعوبة بالغة تتنفس لم تتقبل الأمر , فهي تفضل أن يضربها يوميا و تتحمل ذلك على أن يتزوج عليها خاصة زوجة تصغرها بعقد من الزمن , تساقطت دموعها كنهر يثور ماءه لا طواعية و هي تسأله :" لماذا فعلت ذلك ؟ في ماذا أنا مقصرة في حقك؟ هيا أجبني ..صمتت طويلا تنتظر جوابا يقنعها , جوابا يعرفها ما ذنبها , ذنبك يا أمي أنه ما كان عليك التورط في هذا الزواج الفاشل , ذنبك يا أمي أنك انجرفت وراء الحب الخرافي في ظل الفقر و البؤس , و ذنبك الأعظم هو إنجابنا , ما كان عليك تحمل مسؤولية لست في موضع لها , وستظل دينا في رقبتك إلى يوم القيامة . أيكفيك كل هذه الإجابات بالطبع لا , فالجواب الذي قدمه لك على طبق من نار وحده يهزك , في تلك اللحظة التي قالها لك صارخا طاعنا : أن لا تصلحين لشيء , لا تستطعين حتى إنجاب ولد يهز شأني و أفخر به , أنت لا تهتمين لمظهرك المزري , و كل عيوب العالم اجتمعت فيك , باختصار أنت عالة ابتليت بها . أيكفيك كل هذا إذا ؟ .

بعد نصف ساعة من ذاك الصراع الحاد , وجدنا أنفسنا في الشارع و الساعة تشارف في الدخول إلى الثانية ليلا , بعد أن طردنا طرد الكلاب

و تبرأ من دمه , أصبحنا الآن من فئة المشردين هذا المصطلح هو ما سيناسبنا بعد الآن , أحمل " أحلام" على كتفي و أسير خلف أمي , أين تأخذنا ؟ و أي اتجاه سنسلك في هذا الظلام ؟ أتساءل كثيرا و أخرج بجواب مفاده " لا أعلم" لأني أعلم أني الآن لا أعلم لكن بعد الآن سأعلم , و ما هي إلا لحظات حتى وجدتني في ضريح أحد الأولياء الصالحين قرب البحر , هناء حيث يبيت بعض الناس معظمهم نساء رفقة أطفالهن مدة ثلاثة أيام , تقربا من الوالي و طلبه في قضاء حاجة لهم , إنه عالم غريب جدا , فلماذا اختارت أمي هذا المكان ؟ هل لأنها لم تجد البديل فليس لنا أقرباء أم هي أيضا جاءت قصد أن يعيدها إلى زوجها و يطلق الشابة , ...بحثنا عن مكان نرمي فيه أجسادنا بين النسوة و بصعوبة وجدناه , نامت " أحلام" في حضني مطوقة بين ذراعي خوفا عليها من الغرباء , و أمي نامت جنبي , إنها المرة الأولى التي تنام معنا , و المرة الأولى التي تحضنني , سرت بداخلي قشعريرة و شعور غريب عجيب لم أحسه من قبل , إلى جانب ذلك انتابتني رغبة ملحة في الضحك من بطنها المنتفخ , كنت أتأمل كيف تكون ضمة الأم , حضن لا يعوضه أخر , أنا أحضن أحلام و أمي تحضنني يالاه من تسلسل , طوال الليل و أنا أعيش الشعور لحظة بلحظة , كنت متعطشة له منذ زمن فارتويت إلى أن غلبني النوم و غرقت فيه بعمق .

صباح اليوم , نهضت بعيدا عن الضفتين فهنا لا توجد سوى ضفة واحدة ألا و هي البحر , لازلت " أحلام " نائمة كالملاك غير أني لم أجد أمي , أين اختفى ذاك الحضن الدافئ ؟ انتابني أحساس الخوف من كل هذا السكون , فالكل غائب و لا أحد هنا , فحملت أختي لنبحث عن أمنا ,في الخارج , فأفاجئ بأن الجميع هناك و أمي محاطة بهم , اجتمع الكل حولها مع وجود الشرطة العلمية كسرب حمام وجد وليمة يسد بها رمق جوعه , و أنا جالسة كالقرفصاء هنا و بجانبي "أحلام" البريئة , عيناي في اتجاه واحد عندك يا

أماه , في اتجاه ذاك الثوب الأبيض الملفوف عليك , وبين هنا و هناك أصوات مرتفعة , أقاويل و تعاليق , كل يؤلف حسب ما راق له ,لكن كلها مفادها كلمتين لا غير (انتحرت و هي حامل) وبينما أنا في قوقعة صمتي تهز أختي كم قميصي , فأرفع رأسي نحوها و أجدها تحملق تجاهي بنظرات استغراب و تطعنني بسؤالها المفاجئ قائلة : " بسمة , ما معنى انتحرت ؟ " فأعود لصمتي و أنا أتساءل في قرارة نفسي :

" أكان هذه المرة صبيا ؟ " .

سراب الليل

في عتمة الليل , بعدما أسدل الليل ستاره و أقفلت المحلات و المتاجر التجارية , و نام الموظفون و العاملون و البائعون مما يجنون رزقهم الحلال في شمس النهار , استيقظ عالم ثاني في سراب خفي , إنه عالم خاص بالمكبوتين من حشاشين و مقمرين و كذا العاهرات اللواتي اتخذنا الجسد تجارة رخيصة مباحة لمن يدفع أكثر , اتخذن هذه المهنة تحت ذريعة الفقر , لكن ما ذنب الفقر في فسادكن ؟ ما ذنبه في رغباتكن الخبيثة , و متى كان الفقر عيب في حياة الإنسان و قد قال ربنا أن أول من يدخل الجنة هم الفقراء ثم بعدها الأغنياء , بعن الآخرة بمال بخس ليشبعن رغباتهن التي لا تنتهي مع وفرة المال و الإغراءات الأخرى , كأنه لا يوجد عمل أخر يوفر لهم أبسط لقمة العيش خبز و ماء .

كنت أعرف ذلك العالم العفن من طرف أناس المقهى الذي أصبح لسانهم يثرثر أكثر من النساء , الكل يتباهى و يحكي عن ليلته الحميمية مع خليلته رغم علمي أن البعض منهم متزوج و أخر مقبل على الزواج , لكن تبقى لهذه التجربة بالنسبة لهم باب أخر مختلف عن القفص الزوجي و كأن الزواج شيء و هذا الذي لا اسم له شيء أخر , فلا عمل و لا حديث لهم في تجمعاتهم غير هذا الموضوع , فوقت عملهم يبدأ ليلا حين يغط العالم الأول في نوم عميق , كنت أتجسس على حديثهم من بعيد , أمسك جريدتي متظاهرا أنني أقرأ لكن عيني على الكلمات المطبوعة و أذناي على الكلمات التي تخرج من أفواههم , كنت أكره أفعالهم و أبغض تصرفاتهم , و أدعو

لهم بالهداية بالغيب , لكن شيطاني لم يتركني في حالي كان يريد هو الأخر أن يأخذ مني و لو جرعة , فاليوم ذنب قليل و غدا جبل كبير منه , انسقت للهفوات و أردت أنا أيضا أن أجرب كيف يكون سراب الليل رفقة الفراشات الجميلات كما سموهن , أردت أن أتذوق و لو القليل مما يسردون فيما بينهم.

و في ليلة , نزلت من البيت على غير عادتي أن أخرج في ساعة متأخرة من الليل متحججا بأنني سأبيت عند صديق , كم كان صعبا علي أن أكذب على أمي و أقول لها ما لا تقوله عيناي , أن أخون ثقة ابنها الوحيد , و كم أنبني ضميري على هذا أولا , فسرت مترددا بين مؤيد و معارض , بين مشجع و محبط , لكن خطوات رجلاي كانت أقوى لتدفعاني لذلك المكان المشبوه , الحانة الليلية للطبقة المكبوتة التي لم تجد لها مكان على الواقع فجاءت إلى هنا متنفسها الوحيد لإشباع تلك الرغبة العطشاء , هنا حيث يوجد كل ما يتمناه شيطانك , قَمْرٌ , خمر , و تسلية مع مومس , كل هذا دفع بي لأن أصور العالم الليلي من زاويتي أنا ليس مما يحكى هناك بالمقهى .

تقدمت نحو صالة الرقص الوجهة الأولى لكل زائر , و المكان الرئيسي الذي يظهر لك عند الدخول , الكل منهمك بغرائزه و ألعابه , يد فيها كأس شراب و اليد الأخرى تحضن خصر عاهرة , لا أحد هنا فارغ اليدين , و لا أحد وحيد , الكل سعداء بخيبتهم الذي تراها على وجوههم , و أنا كأني ألقيت في بركان , كان المكان بالنسبة لي أشبه بجهنم , فكلما ارتفع صخب الموسيقى كلما ازدادت ضربات قلبي , كأن ملك الموت قادم ليقبض روحي هنا , رجعت للوراء عازما على الخروج بأسرع ما يمكن , فلا أريد الموت هنا , لا أريد !! لا أريد!! , فإذا بيد إحداهن تمسك بي لتوقعني , و تسلط عليَ سحرها و عفونة أنوثتها , ارتبكت في بداية الأمر و لم أعرف كيف أتصرف , لكني

أحسست بشعور غريب اختلج صدري كأني للتو عدت من غيبوبة , وجدت نفسي هنا , فدفعتها بقوة عني و قلت لها مشيرا سبابتي في وجهها : " لحمك الرخيص لا يساوي شيء أمام كرامة و عفة حواء " شعرت حينها أنني ألمتها حقا , و صوبت نحوها رصاصة كانت في الصميم , تركتها تنزف دمعا و خرجت مسرعا من ذاك الجحيم , و أحمد الله على بقائي حيا , حاولت الرجوع إلى البيت لكني خشيت من كثرة الأسئلة و الرد بجواب كاذب لأسكت عطش أسئلتهم , فاخترت التجول بين الشوارع و الأحياء إلى أن بدا لي نور ساطع منبعث من إحدى الأزقة كأن القمر قد نزل هناك , اتجهت نحو المكان ليتبين لي أنه بيت الله فاتحاً لي ذراعيه من كل الأبواب , هرعت إليه و كلي شوق لملاقة ربي , و لأكفر عن ذنبي و زلة قدمي ,و لم تبقى سوى دقائق حتى نادى المؤذن لصلاة الفجر مهللا " الله أكبر , الله أكبر " " الصلاة خير من النوم " , مكث هناك لأصلي مع الجماعة و قرأت ما تيسر من القران , حتى أشرقت الشمس فعدت إلى داري بقلب خاشع و روح مطمئنة , و أنا أردد في داخلي " اللهم توفني ساجدا بين يديك لا فاسدا في دنياك " .

كأننا لم نكن

عاد بريق وجهك ليقتلني من جديد , جعلني أقف للحظة أتأمل الملاك المار أمامي , روح تتراقص حولي كفراشة مزركشة الألوان , طافت في كل مكان لتحط الرحال على كتفي فتنام , و أنا كالجدار الكتوم أأنشق لنصفين أم أرمم ما كسر بداخلي من لحظات فاقت الذكريات في الوصف , بل هي مملكة تنبض بالحياة لا يسكنها سوى ملكة تربعت على عرش قلبي أسميتها أنتِ , كنت بالنسبة لي كل شيء , غير أنك رحلت مع كل و تركتني مع لا شيء , و في هذه الليلة الحالكة أراكِ تعودين في صفة ملاك قد نزل من السماء , تمشي هادئة الخطوات و بصمات قدميها قد طبعت في رمال الشاطئ , أميرة بفستان وردي تمسك في يدها اليمنى حذاء أبيض , ذات عينان عسليتين غارقتان في الشرود , بينما شعرها الأسود يرفرف عاليا كراية تحي الوطن , متمرد على الحياة طالما عجزت النفس عن ذلك , مرت بقربي و أنا في حالة بين الشك و اليقين , بين التصديق و الصد , جالس بمكاني المعتاد لا أفارق موضعي و لا أنطق ببنت شفة , أصبح المكان صديقي وحده يعرفني و يشتاق إلى حضوري لأعيد له شريط الذكريات الواحد تلو الأخر فلا ينتهي إلا بدمعة حارقة تزيد في تعذيبي و إخباري أنها ليست هنا , لكنك اليوم أتيتِ و اتخذتِ لنفسك موضع أقرب بقليل مني , يا إلهي لكم تشبهك هذه الروح حد التطابق , أهذه أنتِ حقا !! أم توأمك أم من أنتِ لست أدري , بعد غياب طويل و اشتياق قاتل تعودين ؟ لم أقوى على الحديث معها فتظنني رجل ليلي متطفل يريد مغازلتها و التودد إليها , لم أستطع حتى إلقاء التحية

عليها و أسمع صوتكِ أنتِ لا هي فأمضي قدما , لم و لم أفعل أي شيء لاستشعار وجودك أكثر سوى تأملها من بعيد , تراقب البحر في صمت و لا تحرك ساكنا , تماما كانت حين تكون نفسيتك مضطربة , المكان الوحيد الذي كان يخطر على بالك هو البحر , فتطلبين مني أن أخدك إليه و أن أتركك وحدك , لكني كنت أنفذ الطلب الأول و أرفض بشدة الثاني لم أكن لأقوى على أن تظلي وحيدة في حزنك , فكنت أجلس بجوارك لساعات طويلة الصمت في حضرة البحر و صرخات الموج , و فجأة أجدك تبتسمين و تعودين لطبيعتك و لم أكن أفهم جنونك المتطرف ذاك لكنه أكثر شيء أحببته فيك , الإنسان بطبعه يميل دائما للأشياء الغامضة و التي لا يجد لها جواب , منغمسون في الغرابة و متيمون جدا بالوجع , لكن هذه الماثلة أمامي هناك اختلفت عنك في نقطة , نظرت إليَ في تبسم و لاحت بوردة بيضاء في البحر و هي تتمتم بكلمات مبهمة نحوي لم أسمعها ثم راحت إلى سبيلها , كاد يغمى عليا من وقع الدهشة , لماذا تكلمني أنا بالذات إذا كان هناك الكثير من الناس حولها و أقرب إليها مني , أسئلة كثيرة ضربت في رأسي و لم أجد لها جواب غير تتبع أثرها .

بعدما كان الذي كان من تلميحها لي أنا المقصود بالأمر , رحت لأتتبعها في الطرقات من شارع إلى زاوية ثم حي , حتى دخلت بي إلى حي مظلم , عمود النور منقطع عنه الإنارة فلم أكن أرى شيء سوى وجه القمر المضيء من بعيد كحبل رفيع يرشدك إلى الطريق الصحيح , لكني اخترت طريقها بعيدا عنه , كنت أحاول الإسراع في خطواتي للحد من وطأة هذا الظلام سريعا فتذكرت أنها أمامي فأعود لأبطئ من مشيتي كي لا أصطدم بها , لكن عندما عبرت الحي المظلم و خرجت للنور لم تكن هناك , اختفت هكذا

بلمح البصر كأنها لم تكن سوى محض خيال , ألتف حول نفسي ربما تكون قريبة مني , هنا أو هناك , ورائي أو أمامي , لكن لم أجد في هذه الدوامة غير نفسي الغريبة , وأفاجئ بالمكان الذي أقف على عتبته , البيت الذي كنا سنسكن فيه معا , بيتنا الذي كان سيكون بعد شهر واحد من التحضيرات للعرس و الأثاث عالم يخصنا وحدنا , و المكان الأخير لأخر لقاء بيننا , أتذكر طلبك للحضور هنا قصد إخباري بأمر هام جدا لا يصح تأجيله و الحديث فيه عبر الهاتف , أرعبتني لدرجة تخلصت من كل ما في يدي و أتيت إليك مسرعا , فوجدتك تنتظرين وصولي في تقرب بينما على الطاولة المجاورة لك الكثير من الأدوية مبعثرة التي لم أرها من قبل بجوارك , وعندما سألتك لمن هذه ؟ و ماذا أصابكِ؟ و هل أنت مريضة ؟ دفعة واحدة أجبتني بهدوء ينم عن التستر , أنها مجرد أدوية للزكام و مسكن الألم , لتصرفيني عنها بحجة موضوعك الأهم غير أن عقلي أخذ صورة مكبرة لتلك الأدوية فتعلق نظره بها و لم يستطع الإشاحة عنها و تصديقك , لكن كان عليا التركيز فيما كنت تقولينه , أخبرتني أننا سنفترق فالرحيل أوشك على القدوم و الساعة تدق أوزارها و عليك حزم أمتعتك استعدادا له , و عندما سألتك من هو ؟ قلت : الموت !!

كم ضحكت يومها على فلسفتك تلك , فقد كنت متأكدا أنها مجرد دعابة منك لتعرفي مقدار حبِي لكِ , أردتِ تحريك عواطفي , لم أصدق هلوستك و طلبت منك أن لا تذكري كلمة الموت , فنحن مقبلين على حياة جميلة تجمعنا معا و إلى الأبد , فبكيت كثيرا و لم أعرف أنها كانت دموع وداع لا رجعة فيه , لكني صدقتك الآن فبعد أن صعدت روحك إلى السماء و نزل جسدك إلى عمق الأرض , صدقت رغما عن قلبي , أدركت أن الفراق أمر محتوم ينتزع

منك الغالي و لا يترك لك شيء بعدهم غير ذكراهم الأليمة , يسلب منك الروح ليترك لك الجسد , فكيف للجسد أن ينبض دون روحك , و بعد أن

غابت شمس النهار من دونك لأول مرة جاءت أمك في استحياء تخبرني خبرا كالغريب أنك كنت مصابة بمرض عضال لا تنكشف أعراضه , فجعت من كلامها و سردها لحظة بلحظة ما كنت تمرين به من لحظات عصيبة من دوني ,هكذا ببساطة!! كيف تكتمين عني أوجاعك , و كيف كان بإمكانك تحمل مرارة الكتمان , أجبيني ! فل تقل روحك شيئا , قد أوقعت قلبي أسير الفراش و أسكنتني في مدينة مهجورة لا يقطنها سوى طيفك الغائب , لكن بعد الآن لن أقف مكتوف اليدين , اليوم بعدما أوصلتني روحك الذي لم تكن أخرى سواك أنتِ فقط إلى بيتنا , سأنتقم منكِ أشد انتقام لأنك أخفيتي الحقيقة عني , سأخونك مثلما خانتك الحياة و خنتني أنت بالكتمان , فأدويتك لازالت في نفس المكان و لم يمحيها الزمان لم تلمس قط , شهرين ونصف على موتك و المكان هو المكان , إن كنتِ تشربين كل هذا الكم من الدواء كي تبقي على قيد الحياة فأنا سأشربها كلها دفعة واحدة كي أموت قيد الوفاء و أعاند الحياة , لن تكوني وحدك بعد الأن قلتها لكِ يوما و سأقولها لك هناك أيضا , أشعر بخطوات الموت تحملني إليكِ, إني أتٍ للقياك في سفينة السلام , انتظريني على مشارف الجنة فربما قد يغفر لي الله خطيئتي هذه بحبك الطاهر , فيكتب لنا اللقاء , فهناك الخلود و هنا المنفى .

أجنحة التحرر

أفكار تكاد تقتلني وأخرى تكاد تحيني من جديد, لتبعث فيا الروح وتشعرني وكالعادة ,أنني مازلت أتنفس ...ارتفع صريخهما مجددا إلى أخر الحي رؤوس تطل من شبابيك المنازل لتشاهد الفيلم الدرامي الذي يعرض كل يوم حلقة جديدة وأحداث قديمة , حتى صار مسلسل وأي مسلسل هذا؟ واقع لا مفر منه يلزمني على لعب دوري حتى النهاية , أيكون دور الضحية أو محور القضية؟ وسيد اللعبة هو رجل لا يمكنني أن أسميه بأبي و لا يسعني أن أطلق هذه اللفظة على شخص لا أعرفه , فقاموسي الصغير لا يحتوي على هذه المفردة العظيمة , لكن الواجب يرغمني على أن أمثل و أنطق بها , واجب لطالما طبقته رغما عني , و حفظته ظهرا عن قلب , فالقانون أرغمنا على العيش في بيت واحد تحت سقف واحد , حكم عليه تحمل مسؤولية إنجاب هذه الصبية , عفوا أقصد هذه المصيبة , أن يتزوج بأمي رغما عنه , بعدما إستزف منها ما تملكه كل أنثى .

و ها أنا الآن تعودت النطق بها من الألف إلى الياء, بلا معنى منذ نعومة أظافري , فأن تتعود شيء و أن تفهم معنى ما تقول شيء أخر , لذلك بيني و بين نفسي اخترعت له اسما يليق بمقامه , فسميته ب " الطيف " الذي لا يريح و لا يرتاح , حتى أفهم ما أنطق به , و أستوعب مع من أتكلم .
ففي أحد الحلقات المسائية عاد طيفنا هذا رفقة سيجارته الحميمية التي تلف أصابعه أينما حل , في وقت متأخر ما يقارب الواحدة ليلا ثملا , بعدما قضى سهرته مع رفقائه في مكان قذر مثله , كنت حينها غارقة في كوابيسي , فقد إمتزجت كوابيس اليقظة بالنوم , فصرت لا أعرف أيهما الواقع !! هجرتني الأحلام لتحل محلها أطياف مزعجة دمرت كل ما هو جميل , أفزعني صراخ حاد و نقاش عنيف , كسر كل ما وقعت عليه عيناه بحثا عن المال , لكنه مل

من البحث و ازداد هيجانا ,ليتجه نحو أمي المسكينة كالثعبان اللاسع , فقد قرأ في نظراتها تستر لا ريب فيه عما بحوزتها , انقض عليها ليلتهم ذاك الجسد النحيل الهزيل , ليقتحم باطنه أكثر من خارجه , و الكل يترقب في صمت يا ترى ماذا سيحدث ؟ و بماذا سينتهي هذا المشهد ؟ هل بدماء جروح تكسو جسد أمي ؟ أم بكسر ضلع من أضلعها كعادته ؟

لكن اليوم كان الحلقة الأخيرة مفاجئة لهذا المسلسل الذي دام ما يزيد على الثلاثة سنوات , ففي اللحظة التي حاول تمزيق ثيابها و كشف المستور بحثا عن المال , سحبت أمي سكين المطبخ من وراءها و غرزته في أم قلبه مباشرة , ثم انتهى !!! عذاب , معاناة و حرمان لطالما استحملته أنا و أمي مع هذا الطيف الخبيث , الآن أصبح جسدا بلا روح .

أطلقت حينها ضحكات عالية , و انزويت في حضني أمي لأقبل بطلتي , اليوم فقط يمكنني القول أنني ولدت من جديد , يمكنني أن أضحك , ألعب , أرقص و أغني و أقول مرحى للحياة , فالكابوس الأسود قد زال و مات , مات , مات .

وداعا أيها الماضي و أهلا بك أيها الحاضر , حاضر بلا جروح و بلا كسور.

ذكرى

في هذه الأوقات العصيبة بين الفقر والحرب والموت , بين الفقد و الشوق و الانتظار , استطعت أن أجد لنفسي فجوة صغيرة أهرب منها من هذا العالم البئيس إلى زاوية أسميتها الذكرى , تركت كل تلك المشاكل و عبرت في رحلة محيطية نحو جزيرة خبئت فيها ألبوم صور و فتات ذكريات , تحكى عن شخصيات لم يكن لها وجود في حياتي إلا القليل , ست سنوات كان عمري حين فقدنا فردين رئيسيين في قائمة العائلة هما جدي وجدتي , ففقدت معهم ذاكرتي إلا من لقطات مشوهة رمادية الحزن , عزاء , بكاء , كفن و دفن , وكأن الموت يغرز شوكته في الأحياء و يقول لهم كل شيء يفنى و لا أحد يبقى لأحد , لطالما كانت الحياة قاسية تأخذ منك الأقرب إلى قلبك و تترك حولك أتفه البشر , فلا يعود لا للمكان و لا للوقت معنى , في ذاك اليوم حضر البكاء و غابت فيه شمس الحياة بالنسبة للحاضرين المقربين و الكل أعلن حداده بطريقته و نفسيته , فبعضهم لم يبكي على وفاة جدتي بل جاء ليفرغ حزنه الصامت و يخرج كل آهاته و كربه هنا , فقد لا تأتيه فرصة أخرى لإعلان البكاء , لكن وحده حزن أمي على أمها كان صادقا شفافا , فلم يمنعني صغر سني و لا طفولتي البريئة من أدرك عيناها التي تفيض دمعا لاهبا , التي لم تتزحزح من مكانها حيث وضعوا جدتي و غطوها بكفن أبيض داخل غرفة قد أخرجوا منها سابقا كل الأثاث , بقيت وحيدة هناك إلا من إبنتها (أمي), فقد رفضت رفضا شديدا أن تتركها في ذاك المربع الفارغ حتى لو أن الروح قد رحلت إلى السماء و لم يتبقى هنا إلا الجسد , كانت تصر أن تشاركها تلك الغرفة للمرة الأخيرة , الكل فزع

و خاف حتى خالاتي لم تأتيهم الشجاعة لفعل ذلك , ألهذه الدرجة الموت " مرعب" ؟ , فلما أمي لم تأبه للجميع و نامت بجانبها كليلة وداع ؟ كم أنتِ وفية يا أمي حتى في الموت , حتى في الفقد و الغياب , لكم بكيت وقتها لأنهم منعوني من أن أنام معكم , و أودع جدتي على طريقتك الخاصة مثلك , و لأول ليلة أنفصل عنكِ و تتركيني قبل أن تقولي لي " تصبحي على خير يا أميرتي " لكني تفهمتك و لم أنم تلك الليلة من شدة بكائي عليكن , شاركتم الحزن و أنا وحيدة بعيدة عنكِ , لكنك في الصباح بحثِ عني لأظل معكِ فيما بعد في كل مراسم الدفن , و بعد شهر من الألم و البكاء أصبح الجرح يلتأم شيء فشيئا , أليس الوقت يداوى الجروح ؟ غير أن ذاك لم يكن صحيحا فما إن استعد الحزن لجمع أمتعته و الرحيل من وجهي أمي حتى عاد بهزة أقوى , لم يمر على موت جدتي سوى خمس أشهر حتى فوجئت أمي باتصال هاتفي بمنتصف الليل , يخبرها المتصل أن جدي قد توفي , ليتكرر المشهد من جديد بكل تفاصيله الهشة , دفن بجانب قبر زوجته التي لم يفارقها سوى خمسة أشهر ليعود إليها في حياة أخرى ,و بعد انتهاء مراسم دفنه رمقتني أمي بنظرات شاحبة و عيناها تفيض دمعا ثم إحتضنتني بقوة وهي تقول " أنتِ الآن هي عائلتي " و إكتفت بهذه الجملة و لم تزد عليها حرف واحدا , و اكتفيت بالصمت كجواب .

مرت على وفاة جدي و جدتي سنين , وفي الذكرى العاشرة لوفاتهم فكرت بزيارة قبرهم و الدعاء لهم عن قرب , توجهت صوب المقبرة فكان الباب الرئيسي مفتوح لأنه يوم الجمعة الذي يكثر فيه الزوار للترحم على الموتى , بينما في الأيام العادية يفتح فقط الباب الصغير , دخلت و بيدي باقة ورد و قارورة ماء , و أنا أخطو خطواتي المتأنية و أتأمل هذا العالم الساكن الكل

يغط في نوم طويل لا رجعة فيه , و للحظة شد انتباهي إحدى القبور الذي قد ذبلت ورداته و جف عبيرها , وانجرفت تربته , كأن لا أهل له يزوره , و مما أثار اندهاشي أكثر هو اجتماع عدد كثيف من القطط حول هذا القبر دون سواه , مما ولد عندي فضول لأعرف ما سر هذا التجمع , اقتربت بضع خطوات لأرى اسم المتوفى , ولكن لسوء حظه لم تخط على القبر حروف اسمه بل كانت شبه كلمات مكتوبة بالأزميل على زليجة رخام , كلمات لا تعني شيء للعابرين " استشهاد رجل في سبيل الوطن "

شدتني هذه الجملة كثيرا لدرجة أنستني أين أنا !! و في أي زمن نحن , تأسفت لحاله , و اقتلعت كل تلك الزهور الميتة و غرست مكانها بعضا مما أحضرت معي , أرويت عطش تربته ثم قرأت عليه القران الكريم و الدعاء له , بينما بقيت القطط ساكنة محدقة في وجهي بنظرات عميقة لم أفهم مغزاها , أهي مستغربة أم منزعجة , و لم أحس بنفسي إلا بنزول دمعتين على خذي .

بدأت أشعر بوجود أنفاس من خلفي , كشخص هادئ يتربص بك , انتابني الخوف خاصة هنا , فاستدرت لأجد شيخ مسن يحدق بي , فحكى لي أنه حارس المقبرة و بأن القطط التي أمامي هي زوار و أقارب هذا الميت , يأتون كل يوم جمعة من شروق الشمس إلى غروبها ,كان كلما تكلم كلما اتسعت بؤرة عيناي اندهاشا كأنه يحكى لي قصة خرافية لا وجود لها إلا في الخيال , و دعني و تابعت سيري نحو قبر جدي و جدتي الغاليين و أنا في حالة تأمل , فأدركت أن الذي يعطى الكثير لن يبخل عليه بالقليل .

لقاء

هنا انبعث النور الساطع الذي أنار دربي , تلك الفتاة الوقورة الحسناء ,الطيبة القلب , الرهيفة الإحساس , نور لا يقاوم , إن رأيتها قمر أو ملاك نزل إلى الأرض بصفة إنسان , تسكن الجميلة بجوار منزلنا , كنت كلما سقطت عيني على عيناها احمر خجلا و أتسمر بموضعي , لا أعرف ما أقول لها , فقد غرقت في بحر عينيها ألف غرقة , ولم أتب بعد و مازالت أغرق في كل مرة تجذبني بؤرة عيناي إلى التحديق فيها خلسة من وراء الشباك , و هي آتية رفقة صديقاتها من الجامعة , و هي خارجة مع والديها في فرح , و هي تلاعب أطفال الحي و تشتري لهم الحلوى , أصبحت جزء لا يتجزأ من حياتي و محورها الرئيسي , أعرفك أكثر من معرفة نفسي , فما سرك ؟ انتقلت إلى الحي رفقة أسرتها منذ شهور قليلة , فصرت مدمنا حد الهذيان على رؤيتها صباحا مساء , و لا يكتمل يومي دون أن ألمح وجهها الملائكي , و إن غابت شمسي أظلمت ساعاتي , تقتلني حيرتي و تعذبني نفسي و لست شابا يبحث عن إشباع رغباته أو امتلاك ما ليس لي , أو مخالفة شرع ربي , لكني حلمت بها قبل رؤيتها , رأيتها تمشي في حلمي بخطوات متأنية , تهديني وردة و هي تبتسم لي في حياء لا يوصف , فنزلت من الحلم إلى واقعي , وأسقتني حتى ارتويت .

الحلم تحول إلى حقيقة , و ازداد تعلقي بها , و أصر قلبي على أنها هي نصفي الأخر لا محالة , و مرت الأيام و الأسابيع واحدا تلو الأخر في انتظار أقرب فرصة تجمعني بها , فكل يوم يمر إلا و تزودني بصفاتها و أخلاقها

حتى لو كان من بعيد , و الأجمل في كل هذا علمتني حب التقرب إلى الله , ففي كل جمعة تصلي ذات الحجاب بالمسجد القريب منا , فتزيدني شوقا لدخول المسجد و إقامة الصلاة , حتى تعلق قلبي بربي و زاد اهتمامي بصلاتي , و في كل ركعة كنت أسأل الله أن يجمعني و إياها في بيت واحد تحت طاعة الرحمن , جاءتني معذبتي على شكل هدية مغلفة من السماء لتنير طريقي و تخلصني من وحدتي و تملأ قلبي بالحب و الإيمان و فعزمت لبسمتها الجميلة , و للعفة و الحجاب الذي صانت نفسها به , و للصحبة الصالحة للبنات أمثالها ممن يخفن الله , عزمت و ليس من شيمي التراجع , أن أفاتح والدي في الموضوع .

صليت صلاة استخارة و توكلت على الله , و أخبرتهم أني أريد تكملة نصف ديني , فلقد وجدت الزوجة الصالحة التي تتمنوها لأبنكم , و التي تنتظرني و أنتظرها على حافة أحلامنا , إنها ابنة جارنا الأستاذ محمد , الآنسة حفصة , متدينة , راعية للقيم و غيورة على المحارم , بعيدة عن المحرمات , انتبهت أنني تكلمت عنها كثيرا , فصمت و تراجعت إلى الوراء في خجلا و استحياء منهما , بينما أبي و أمي نظرا في بعضهما البعض و في أن واحد أطلقا ضحكات وراء ضحكات و أنا في غرابة من أمري , هل قلت شيء يضحك ؟ حينها فاجئني رد أمي : " و الله كبرت يا والدي , ما شاء الله أصبحت رجلا و ها أنت تريد أن تتزوج !! " أجبت بصوت خافت " نعم يا والدي " فأردف أبي قائلا " لا تتعب نفسك يا بني , فأنا أعرف حالة العشق الذي أنت عليه الآن , فلا تتعجل علينا يا بني , فإن هي لك ستكون بإذن الله , في أقرب فرصة سأفتح الموضوع مع السيد محمد , وسيكون خير إن شاء الله " خجلت كثيرا أمامهم , لكني أشعر بالسعادة , هم وانزاح عن صدري

والباقي من عند الله.

توالت الأيام وانشغلت بعملي الجديد , إلى أن جاء الموعد المحدد مع الجيران , كان يوم الجمعة بعد صلاة الظهر وما أجمله من يوم , لبست أجمل ما عندي , و تعطرت برائحة طيبة تليق بالحسناء , أحس بتوتر كمن مقبل على امتحان , و أخيرا إجتمعت الأسرتان في ضيافتها و و كأني أراها للوهلة الأولى , منبهر لشدة جمالها و حسن أخلاقها وتعاملها مع والدي ,و كان أسعد أيام عمري لأنها وافقت ان أكون لها و تكون لي , كانت الجوهرة التي صانها قلبي منذ أبصرتها أول مرة , و الوردة الذي وعدت ربها أن يحفظ قلبها حتى يختار لها ربها أخير الصالحين و المتقين التي تسعد معه دنيا و آخرة , و لولا حياء المرأة لما عرف الرجل السعادة .

كما يقول المثال الياباني : " حياء المرأة أشد جاذبية من جمالها " .

الفهرس :

* على الرصيف
* بالمقهى أنتظرك
* قصف البراءة
* كان قدري
* يتم بين الضلوع
* سراب الليل
* كأننا لم نكن
* أجنحة التحرر
* ذكرى

الحياة معركة و لابد لنا أن نقاتل كي نعيش , لكن بإخلاص و شرف الضمير لا بالقوة و العدوان , و أن نكافح من أجل المبادئ و القيم الإنسانية , حتى تعيش الروح بسلام و تجد النفس مستقرها في النهاية .

(كنزة هروش)